مجلة وادى النيل للدراسات والبحوث - العدد الثامن - أكتوبر 2015م

خصائص الشعر في العصر العباسي

د. ياسمينه محمد محمود عمر

الباب الأول

خصائص الشعر في العصر العباسي

لم يكن هيناً على الأمويين أن يحتفظوا بملكهم طويلاً بعد عصر الراشدين، بسبب الثورات المتلاحقة التي كانت تنشب في وجههم وتنازعهم الحَلم، ولاسيما ثورات الخوارج والشيعة والزبيريين.. ثم كانت ثورة العباسيين سنة 132هـ/750م آخر حلقة في سلسلة تلك الثورات التي، أنهكت دولة بني أمية والت إلى القضاء عليها.

كان في مقدمة ما تطلع إليه بنو العباس التمركز في حاضرة جديدة بعيداً عن دمشق موطن الأمويين، وفي منأى عن الكوفة معقل الشيعة وقد آثر الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور لذلك موقع قرية على دجلة تدعى بغداد على مقربة من مدينة بابل القديمة، واتخذها عاصمة لملكه وأطلق عليها لقب دار السلام مقتبساً ذلك من القرآن الكريم.

وأتصرف المنصور إلى إعمال حاضرته على خير وجه، فابتنى فيها القلاع والجسور، وأقام حولها الأرباض والسدود ونشر في ربوعها الشوارع والأسواق.

ثم ما لبثت المدينة أن عمرت بمئات المساجد والمكتبات والأسواق والمتنزهات فأمها العلماء والأدباء والمهندسون والصناع ثم تعاظم شأن بغداد حتى

بلغت في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وأصبحت موئل الحركة الفكرية والعلمية والأدبية بلا منازع.

وقد ظلت البادية حتى ضحى هذا العهد ترفد المدن والحواضر بمواد اللغة والأخبار، والخطب والأشعار بوصفها موطن الأصالة ومنبع الإبداع، ثم أخذ الرواة ويعد العصر العباسي أزهى العصور العربية حضارة ورقياً، كما أنه أطولها زمناً، إذ امتد حتى سنة 656هـ/ 1258م، حين تمكن هولاكو المغولي بجحافله اللجبة من اجتياح بلاد العراق والشام والقضاء على الدولة العباسية في بغداد التي دامت ما يزيد على خمسة قرون.

وبوسع الباحث أن يتبين عهدين كبيرين في هذه الحقبة العباسية المديدة: عهد قوة ومنعة عاش فيه الخليفة عزيز السلطان فهيب الجانب، ويعرف بالعد الذهبي الذي يصادف القرن الثاني وبعض القرن الثالث الهجري (القرنين الثامن والتاسع للميلاد)، وعهد انحلال سياسي، تخاذل فيه الحلفاء وضعفت في أيامهم هيبة الحكم.

فما أطل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، حتى عدت بلاد فارس في حوزة بني بويه، والموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر في أيدي بني حمدان ومصر والشام في قبضة محمد بن طنج ثم الفاطميين.

على أن التفكك السياسي لم يصحبه بالضرورة تقهقر حضاري ولا تخلف علمي، بل إن الفكر العربي الإسلامي، بما أوتى من قوة دافعة أكسبته إياها القرن الأولى الوطيدة، استطاع أن يمضى في طريق النضج والازدهار ويغمر الأرض بنور المعرفة وألق الإبداع. فقد تعددت مراكز الإشعاع الحضاري، إضافة إلى مدن العراق، فكانت مكة والمدينة في الحجاز، والفسطاط والقاهرة في مصر، وحلب ودمشق في الشام، والري وهمذان في فارس ثم بخاري وسمرقند في ما وراء النهر،

وغزته في أفغانستان وكان طبيعياً في غمار هذا الوضع السياسي والاجتماعي أن ينطوي ذلك المجتمع الجديد على تمازج في العادات والثقافات، وأن يعزز هذا العصر أصنافاً من العلوم وألواناً من الآداب، وأن يعكس ذلك على كل صعيد في الحياة العامة وفي جملتها الحياة الأدبية واللغويين ينتشرون في حواضر العراق ويجتمعون في مدنها، حتى اكتظت بهم الكوفة والبصرة فضلاً عن بغداد، وفي هذه المراكز العلمية والأوساط الأدبية قامت حركة تدوين رانده لم يكن لمثلها نظير.

قشط الرواة وكثر المؤلفون وراجت سوق الوراقين، وقد واكب ذلك على صعيد الأدب نبوغ عدد من الشعراء والكتاب الذين احتضنتهم هذه المدن، واتسم نتاجهم المنظوم والمنشور بكثير من ملامح الحدة والطرافة.

وما من ريب في أن الاستقرار السياسي، ولاسيما بعد انقضاء طور الفتوح والقضاء على الفتن، قد ساعد على الالتفات إلى شئوون الأدب والعلم وقضايا الفلسفة، والفكر وجعل الظروف ملائمة لتدفق العطاء وتفجر الإبداع. وكان من المعهود أن يولى الخلفاء كل ذلك اهتمامهم ويحرصوا على تشجيع ذوي المواهب، يعينهم على ذلك ثراء كبير تجمع في خزائنهم من موارد البلاد الواسعة، بل إن من الخلفاء أنفسهم من كان معروفاً بميله إلى الأدب وحبه للعلم مثل المهدي والرشيد، والأمين والمأمون والمعتصم والمتوكل. كذلك سار أمراء بني العباسي وولائهم ووزراؤهم على غرار خلفائهم، فكان لكل منهم بلاط يقارب بلاط الخليفة أو يضارعه، من قبل ما كان لآل برمك، وطاهر بن الحسين، وعبد الله بن طاهر، ثم الصاحب بن عباد، وابن العميد، وعصر الدولة، والمهلبي وسيف الدولة الحمداني.

وسوف نتناول في هذا البحث جانباً من خصائص الشعر في العصر العباسي من خلال أغراضه:

المدح:

قد غاص عدد من الشعراء عهدئذٍ في حمأة السياسة وخاضوا بشعرهم معركة ولاية العهد بني الأمين والمأمون، فانتصر بعضهم لهذا وبعضهم لذاك في قصائد تداخلت فيها المعاني المديحة والآراء السياسية.

كذلك ظل الشاعر في العصر العباسي حريصاً على رسم الخصال الرفيعة والقيم المثلى في متخصية الممدوح، إذ ما زالت سجايا الكرم والشجاعة، والحلم والحزم، والنجدة والمروءة، والعفة والشهامة، موضع إجلال المجتمع العربي الإسلامي.

ومضى الشعراء يبدون أضرب البراعة والفن ضمن هذا الإطار الرحيب من الصفات الأصلية المثلي.

وكان ما قام به خلفاء بني العباس وقادتهم وولاتهم من جلائل الأعمال، وتصديهم لخصوم الدولة المتمردين عليها في الداخل، ولأعدائها المتربصين بها في الخارج، خير ما أثار قرائح الشعراء وأذكى مرائحهم بعناصر البطولة والبأس.

وقد تجلى ذلك لدى الشاعر أبي تمام (ت231هـ/846م) الذي ارتفع ببعض قصائده إلى مستوى يقارب الملاحم، وآخى فيها بين شعر المديح وشعر الحرب، مقدماً بذلك للأدب العربي نموذجاً جديداً متطوراً من الشعر الحماسي الأصيل.

وعلى هذا الغرار مضى أبو الطيب المتنبي (ت354هـ/ 965م) بعد قرون من الزمان، مشيداً بانتصارات سيف الدولة الحاسمة ومعاركه المظفرة في قتال دولة الروم المتاخمة.

غير أن موضوع المديح لم يبرأ من بعض العيوب التي شابتها في هذا العصر، وفي مقدمتها المبالغة والتهويل، فلم يعد ما قاله الأوائل مثلاً في صدد شعر زهير بن أبي سلمى من أنه "لم يكن يمدح الرجل إلا بما فيه" منحى مطلقاً، بل أسرف الشعراء على أنفسهم في ذلك، وغالوا أحياناً في إسباغ الصفات الخارقة على ممدوحهم.

ومن هذا القبيل قول أبي نواس في الخليفة الأمين:

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطق التي لم تخلق

الهجاء:

أما الهجاء، وهو الغرض الذي يقابل عادة غرض المديح، فقد انعطف في مساره عما كان عليه في العصر الأموي، فخفتت فيه نزعة تحقير الخصم بسبب وضاعة أصله ونسبه، أو خمول مكانة أبيه وجده، أو ضآلة شأن عشيرته وقبيلته.

إذ لم تعد للأنساب تلك الأهمية البالغة التي كانت لها في سالف العهد، بعد همود حدة العصبيات القبلية وانصهار أكثر القبائل في بوتقة المجتمع المتحضر الحديث، فتركز الهجاء أو كاد، في إبراز المعايب الشخصية اللاصقة بذات المهجو وما تنطوي عليه نفسه من مثالب. وهذا المنحنى أخل في رحاب التصوير والفن، وأبعد عن مجال القذف والشتم.

وكثيراً ما كانت المهاجاة تستعر بين الشعراء أنفسهم فيكثر في قصائدهم ذكر المثالب والمعايب، وقد يتجاوزون الحدود إلى التحقير والتسفيه. وقد عرف بذلك بشار بن برد وأبو نواس وأبو عيينة المهلبي وابن الرومي ودعبل الخزاعي وعبد الصمد بن المعذل، حتى إن الأمر بلغ ببعضهم حد التعرض للخلفاء أنفسهم،

شأن الشاعر الهجاء دعبل (ن246هـ/ 860م) الذي لم يتورع عن هجاء الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق. وقد قرن الخليفتين الأخيرين معاً في قوله:

خليفة مات لم يحزن له أحد وآخر قام لم يفرح به أحد

كذلك تنوعت أنماط الهجاء تبعاً لتعدد أوجه الحياة في هذا المجتمع العباسي التحضر. فابن الرومي (ت283هـ/896م) الذي عاش في عصر اكتظ بالجواري والقيان مثل جلنار وبستاق وبدعة وشاجي ودريرة وغناء وظلوم ووحيد وغيرهن من مطربات مجالس الولاة والوزراء، تعرض في شعره لهؤلاء وغيرهن كما تعرض معاصره البختري وسواه، وكان طبيعياً أن يقرظ بعضهن إعجاباً بأصواتهن وأن يهجو آخريات لم يجد في غنائهن ما يروقه.

الرثاء:

أما غرض الرثاء فمن الطبيعي أن تظل له منزلته السامية في النفوس لا نبثاقه من عاطفة الحزن الوادي في كل زمان ومكان. غير أن فمن الرثاء ارتقى في هذا العصر، واكتسب غنى وعمقاً، بفضل شعراء كبار أبدعوا فيه وفي سائر أغراض الشعر، وفي طليعة شعراء الرثاء أو تمام الذي قيل عنه "مداحة تواحة" ومن بعده ابن الرومي الذي عرف برثاء أولاده.

كذلك افتن الشعراء في هذا الغرض تبعاً لتشابك العلاقات الاجتماعية في ذلك العصر، وتوطد صلاتهم مع أولى الأمر. إذ لم يمت خليفة ولا وزير، ولا قائد ولا عظيم، إلا رثوه رثاء حاراً وأبنوه تأبيناً رائعاً، مبرزين في قصائدهم كل ما كان يتحلى به الفقيد في حياته من مناقب وما كان له من فضل.

ولكم ألمت بهذا العصر العباسي المديد أحداث جائحة وفتن طاغية وجدت لها في النفوس صدى أليماً وتحلت على ألسنة الشعراء مراثي دامعة.

وحدث أن احتاج الزنج البصرة في فتنة هو جاء حين زحقوا إليها من ظاهر المدينة، فاستباحوها واعسلوا فيها يد التخريب والتنكيل. وداع هذا النبأ الفاجع ابن الروي فقال في رثاء المدينة المنكوبة قصيدة تعد من أروع الشعر مطلعها:

زاد عن مقتلي لذيذ المنام شغلها عنه بالدموع السجام

ولم يكن هذا النمط من رثاء المدن معهوداً في الشعر العربي، ولكن أحوال ذلك العصر المتفجر اقتضت مواكبة العشر لها. ولعل هذه القصيدة باكورة رثاء المالك الذي أخذ في الظهور فيما بعد ولاسيما إثر سقوط بغداد بيد التتار القساة، وإثر تساقط دويلات المسلمين في الأندلس بيد الفرنجة.

وقد تستدعى حقيقة الموت من الشاعر أن يتأمل في طبيعة الحياة وحال الدنيا، فيكون له من ذلك نظرات وآراء، ولاسيما بعد أن تشبع الشعراء بأفكار ثقافات أغنت معارفهم وعقولهم، ومن هذا القبيل كثير من شعر أبي العناهية في الوجود والعدم، والحياة والموت، والبقاء والفناء.

ولأبي العلاء المعري (ت449هـ/ 1058م) فلسفة أعمق في هذا الصدد تبعاً لغنى فكره ونفاذ بصيرته، حين عمد إلى رثاء صديقه الأسير أبي حمزة الفقيه في قصيدته المشهورة التي مطلدها:

غير مجد في ملتي وأعتقادي نوح بالك ولا ترنم شاد

فقد استطاع أبو العلاء أن يحلق في أجواء علوية سامية وينظر من خلالها إلى الكون والحياة نظرة كلية شاملة وبذلك ارتفع في رثائه من نطاق الحادثة الفردية المحدودة إلى رحاب الإنسانية الشاملة.

كل ذلك يعنى أن هذه المراثي تغاير في كثير من ملامحها معهود شعر الرثاء الذي يعلب عليه النواح وتبلل قوافيه الدموع.

الغزل:

وقد اكتسب الغزل في العصر العباسي غني ومضاء لارتباطه بعاطفة الحب الغلابة في النفس الإنسانية، وأقبل الشعراء إقبالاً كبيراً على النظم فيه، فكثر كثرة بالغة وازدهر أن دهاراً واسعاً. غير أن الاتجاهين اللذين غلبا في العصر الأموي وعما الغزل العفيف والغزل الصريح لم يسيرا في العصر العباسي على ذلك النحو المتوازية. فقد أخذ الغزل العفيف في التضاؤل، في عصر تكاثرت فيه النخل والآراء، واحتد من المنازع والأهواء، وقلما عرف المجتمع العباسي طائفة من شعراء الحب النقي الطاهر كالذين عرفتهم من قبل بوادي الجزيرة وربوع الحجاز، مثل قليس بن ذريح جميل بن معمر وعروة بن أذينة. ولعل العباس بن الأحنف وقلت من أمثاله العشراء الذين تعذبوا في عشتهم يمثلون بقية ذلك المنحى، وإن لم يبلغوا فيه شأن العاذريين قبلهم. فالعباس بن الأحنف (ت192هـ/ 808م) قصر شعره، أو كاد، على التغني بعاطفته ومشاعره.

ولعلي بن الجهم غزل كثير أجاد فيه تصوير لواعج حبه. وقد برع في مقدماته الغزلية الرقيقة ولاسيما ما كان يستهل به مدائحه للخلفاء. ومن ذائع غزله في صدد مديحه للمتوكل:

عيون المهربين الرصافة والجسر جلبنا الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

واشتهر البحتري بالغزل، لما اتسمت به ألفاظه من سهولة ورقة وعباداته من عذوبية وسلاسة، وقد أحب علوة الحلبية، وقال فيها جل غزله.

وغزل الشريف الرضي (ت 406هـ/ 1016م) على تأخر عهده من أبرز الشواهد على قبل الشعور وعفة اللسان، فضلاً على سمو مكانه ورفعه نسب، وقصائده الجميلة التي اشتهرت بالحجازيات نفثات شجية أثارت كوامن نفسه المضطربة.

أغراض أخرى:

ولعل أبرز انعطاف طرأ على الشعر العربي في العصر العباسي هو انبثاق غرضين آخرين اضيفا إلى سائر الأغراض المعهودة في الشعر العربي، وهما غرض المجون والزندقة، وغرض الزهد والتصوف. ومع أن لهذين الغرضين جذوراً في الشعر العربي القديم، إلا أنهما بلغاً في هذا العصر المدى من التطرف. لقد انطوى المجتمع الإسلامي في العصر العباسي على كثير من التعقيد، وعرض له كثير من الاختلال. وكان ذلك كله بسبب التبدل الشديد الذي أصاب الحياة الاجتماعية والفكرية والدينية. إذ التفت الناس إلى حياة الدعة واللهو بتيجة انقضاء مرحلة الجهاد والفتح، فازدهرت التجارة وحركة القوافل، وتكاثر المتمولون وتركزت الثروة في جيوب فئة من الأغنياء. ونشطت تبعاً لتلك حركة المتاجرة بالرقيق، وانتشرت أسواق النخاسة، وشاع اقتناء الجواري والغلمان، بعد أن انصبت عناصر أعجمية كثيرة على الحياة العربية من فرس وروم وترك، حاملة معها نزعاتها ونزواتها، وعاداتها، وأهوائها، فكثرت عناصر المولى وتزعزعت القيم، وضحفت الأعراق والتقاليد. وهكذا أبرزت الزندقة لتغدوا مظهراً من مظاهر المروق من الدين وفساد العقيدة، كما برز المجون مظهراً آخر من مظاهر التحلل في الأخلاق والسلوك، والاستهتار بالقيم والأعراف. وقد تطرق الشعراء في ذلك، من أمثال بشار بن برد وأبي نواس ومطيع بن إياس، حين أطلقوا لأنفسهم عنان القول، وخرجوا عن نطاق الحشمة والوقار. ولم يفتقد الأدب ذلك الحب العذري أو

العفيف، وما اتسمت به من ملامح الطهر والنقاء، بل ابتلى بنمط شاد مستحدث من الشعر الهابط في مضمونه لم يعهده العرب من قبل، وهو التغزل بالمذكر. كما لم يعد الكثيرون يجدون حرجاً في شرب الخمرة وارتكاب المعاصي متحللين من كل خلق ودين.

وثمة نزوات كثيرة اشتهر بها أبو نواس وتجلت في أقواله وأفعاله، إنه يخاطب ساقية في الحانة بكلمات طافحة بالاستهتار والتحدي.

ألافا سقنى خمراً وقل لي هي الخمر ولاسقنى سراً إذا أمكن الجهر

حتى إن بعضهم جهر بالزندقة ومنهم بشار ابن برد وحمام عجرد والحسين ابن الضحاك وصالح بن عبد القدوس وسواهم، وقد عرف أكثرهم بالمجون والتهتك والملاحظ أن هذه النزعات المتطرفة قد برزت في مدن العراق كالبصرة والكوفة وبغداد نتيجة انضباب فئات كبيرة من الأعاجم على سكان تلك الحواضر، حاملة معها نحلها الغريبة، من بوذية وزرداء شتيه وما نويه وغير ذلك.

وطبيعي داخل ذلك المجتمع الحافل الذي كان يضطرب بتيارات شتى أن تتعدد النزعات، وتتعارض الاتحاهات. ولم يكن بوسع مجتمع عميق الجذور ورث القيم العربية وتسبع بالروح الإسلامية أن يتقبل الزيغ والانحراف، ويرتضى الطيش والمروق. لقد هال الاتقياء وذوي الغيرة على الدين والأخلاق ما تعرض له ذلك الجيل من غزو لأفكاره ومعتقداته، وفساد في قيمه وسجاياه. ورأوا إن خير سبيل إلى النجاة من تلك الشرور العودة إلى جوهر الدين والتمسك بحبل الله. وهكذا اشتد تيار الزهد والتقشف في مقابل نزوع الآخرين إلى المجون والتحلل. وقد على بعض هؤلاء في التضييق على أنفسهم غلو أولئك في تحللهم واستهتارهم. قد أبوا على الوعظ والتعبد، وحضوا على حياة النسك ونبذ حكام الدنيا.

ويعد الشاعر أبو العتاهية الذي عاش في صدر العصر العباسي مثل تيار الزهد في الشعر العربي، حين أكثر من نظم قصائده الزهديات وبرع فيها، حتى أنه جعل في ذلك الشعر غرضاً جديداً أنضم إلى سائر الأغراض المعهودة.

وقد نظم ف يغرض الزهد شعراء كثيرون، منهم سفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك ومحمد الوراق ومالك بن دينار، إضافة إلى ابن نواس في أواخر حياته.

ثم أخذ تيار الزهد يخرج عن بساطته ويزداد اتساعاً وتعقيداً، فلم يعد أعلامه يكتفون بالوعظ والتذكير بالموت والإكثار من ذكر القيامة والنار، بل راحوا يرتكزون إلى أصول فكرية وفلسفية، انبثق في نهاية الأمر مذهب التصوف. وقد تجلى مفهوم الحب الإلهي في عصر مبكر لدى رابعة العدوية (ت135هـ أو 1085م) الزاهدة العابدة، التي يقال إنها استعملت لأول مرة لفظة الحب للتعبير عن إقبالها على الله، وأعراضها عن كل ما سواه.

وهذا الحب الإلهي هو المحور الذي دار حوله اهتمام المتصوفة لأنه الحب الأكثل الذي يفنون نسيه فناء يحقق لهم السعادة والاطمئنان.

ثم أخذ الفكر الصوفي ينطوي على كثير من التعقيد بفعل مؤثرات دخيلة على الإسلام من بودية وإغريقية ومسيحية. وكان أن ظهر فى السنين العباسية المتأخرة عدد من الشعراء الأعلام في التصوف مثل الحسين بن منصور الحلاج (ت309هـ/ 921م) الذي تم فيه تنفيذ حكم القتل، وكان يعتقد باتحاد الناسوت، أي الروح الإنساني، باللاهوت، أي الروح الإلهي، كما ظهر في أواخر العصر العباسي عدد من كبار المتصوفة الذين نظموا أشعارً كثيرة عرضوا فيها مذهبهم بأسلوب رامز يعتمد تعابير العشاق وألفاظ المحبين، مثل ابن الفارض (ت 632هـ/

1243م) الذي يقول في إحدى قصائد ديوانه الصغير الشهير متغنياً فيها بخمرة الوحدة الآلهية:

شربنا على ذكر الجيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

وقد أفاض في عرض مذهبه في المجاهدة ونظرته في وجدة الوجود ضمن مطولة شعرية بلغت سبعمائة وستين بيتاً وتعرف بنظم السلوك.

خصائص الشعر:

1- من حيث الموضوعات:

اتسع مجال القول على صعيد الشعر والنثر في أدب العصر العباسي، تبعاً لاتساع مناحي الحياة وتشعبها في هذا الطور المتألق من حضارة العرب. وتكاثرت الموضوعات التي تناولها الشعراء وفضلاً عن الأغراض الشعرية التي نظموا فيها. من ذلك توسعهم في وصف مشاهد الطبيعة المختلفة، مثل وصف الربيع لأبي تمام وللبحتري وكذلك ما وصف به أبو الطيب المتنبي شعب بوان في بلاد الفرس.

وأوغل شعراء هذا العصر في وصف الأيك والحمائم، والرياض والحياض، والازدهار والثمار، حتى حفلت دواوين البحتري وابن الرومي وأبي بكر الصنوبري وأمثالهم بهذه الأوصاف الجميلة التي انطوت على التشبيهات الطريفة والألوان البهيجة.

وقد عنى أبو بكر الصنوبري (ت 334هـ/ 945م) بوصف الخلائق والبساتين، والورود والرياحين، حتى اشتهر بأشعاره (الروضيات)، وهو يشير إلى هذا المنحى الأثير لديه في قوله:

وصف الرياض كفاني أن أقيم على وصف الطلول، فهل في ذاك من باس

وكان لوصف المدن والمنشآت العمرانية حيز آخر في قصائد الشعراء الذين عاش معظمهم في الحواضر، وعرفوا حياة البلاط ومجالس الأمراء، فوصفوا القصور والرياض وكثيراً من مظاهر الحضارة الجديدة ومناحى الحياة المستحدثة. فوصف البحتري قصر الجعفري الممرد، كما وصف بركة المتوكل التي كانت آية في الحسن بفضل إبداع هندستها.

وفي الوقت نفسه التفت شعراء العصر العباسي في أحوال قليلة إلى شئون تتصل بحياة عامة الناس بعيداً عن بلاط الخلفاء وقصور الأمراء.

ومن الموضوعات الجديدة على هذا الصعيد الشعبي وصف ابن الرومي لبسطاء الناس وكادحيهم، وما كان يمتاز به بعضهم من براعة في مهنتهم، كوصفه للخباز وللحمال وقالي الزلابية... في مقطعات شعرية حافلة بالصور الطريفة.

2- من حيث المعاني:

ولعل في طليعة ما طرأ على معاني الشعر العباسي من تطور، على صعيد آخر، أنها جنحت للرقة والعذوبة، بفضل غلبة الحضارة وانصقال الأذواق، كما اتسمت في جانب منها بالابتكار والعمق، تبعاً لنضج العقل العربي وتوسع آفاقه. كذلك امتازت معاني الشعر بالجدة والطرافة بعد أن قيض لها شعراء أفذاذ عرفوا بقوة فنهم وشدة براعتهم وسعة ثقافتهم.

وكان لشعر الغزل وشعر الوصف نصيب واف من ملامح الحداثة التي أغنت الشعر العربي وزادته دنقاً وبهاء.

وتجلى الإبداع الشعري في هذا العصر من خلال اختراع المعاني وابتكار الصور ونفاذ الرؤية.

وغلب على جانب من الشعر فكر الفلاسفة وعلماء الكلام، واقتحمه ألفاظهم واصطلاحاتهم، كالجوهر والعرض والشك واليقين، مثل شعر أبي العتاهية الذي ينم على آثار المانويه الفارسية وعقيدتها الثنائية:

لكل إنسان طبيعتان خير وشر وهما ضدان
وكل شيء لاحق بجوهره أصغره متصل بأكبره

أو مثل شعر بشار الذي تظهر فيه أصداء مذاهب العصر وأفكاره مثل قضية الجبر والاختياري:

طبعت على ما في غير مخير هواي ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى، وأعطى فلم أرد وقصر علمي أن أنال المغيبا

على أن هذا المنحى في التحديث لم يرق المحافظين الذين تمسكوا بعمود الشعر التقليدي، ونهج القصيدة الموروث، إذ الشعر في رأيهم لا يحتمل وطأة الحقائق الذهنية المجردة، والاصطلاحات الفلسفية المعقدة، والمنطق الذهني الصادم.

ورأي البحتري في مثل ذلك بدعة في الأدب لم يعرفها فحول المتقدمين، ولم يجنح إليها إمرؤ القيس إمام الشعراء:

كلفتمونا حدود منطقلكم والشعر يغني عن صدقه كذبه

3- من حيث المبنى الشعري واللفظ:

أما المبنى الشعري فقد تعرض لتغير ملموس في بعض نماذجه، سواء على صعيد الأوزان أو صعيد الأسلوب، فقد مالت القصائد إلى القصر وسارت المقصعات عل الألسنة ولاسيما في مجال الغزل والهجاء والزهد والحكم..

كذلك آثار الشعراء البحور القصيرة مثل بحر الهزج والمجتث والمقتضب، كما جنحوا للأوزان المجزوئة في بحور الوافر والكامل والبسيط والخفيف.

كذلك جددوا في القوافي تخفيفاً من وطأة القافية الواحدة الغالبة، فأحدثوا نوعاً من النظم سموه "المزدوج"، وهو في الغالب من بحر الرجز يختص فيه كل شطرين في البيت بقافية واحدة، وتليها قافية مغايرة في البيت التالي وهكذا.

وقد استعاره الفرس وسموه "المثنوي". وشاع المزدوج لدى أبي العتاهية الذي نظم مطولة شعرية بالغة الطول عرفت بذات الأمثال، وقد ضاع معظمها.

وقد ساغ هذا النمط العروضي الميسر للنحاة والفقهاء وسائر العلماء، فأكثروا فيه المنظومات التعليمية، كما آثر أبان اللاحقي فيما نظمه من أقاصيص كليلة ودمنة، وسواه ممن نطموا في شؤون الحلم والدين والتاريخ. ولا ريب في أن شيوع الغناء والرغبة في تلحين الأشعار في المحافل والأسمار من أهم ما أسهم في رواج هذه الأنماط الجديدة التي تعد من خفائف النظم.

واستتبع هذا المنحى إيثار الألفاظ السهلة المأنوثة، حين كادت تنحصر الغرابة اللفظية لدى فئة الرجاز البداة أول الأمر ثم آل أمرهم إلى الانزواء.

4- من ناحية الأسلوب:

ومن جهة أخرى على هذا الصعيد الأسلوبي غلبت الصنعة على مبنى الشاعر، وأوغلت فيه أضرب التزويق والتزيين، فكثرت فيه الزخارف اللفظية

والمحسنات البديعية، ويعد أبو تمام وابن المعتز في طليعة أصحاب هذا المذهب الفني إذ جد في طلبه وأكثر منه حتى عرف به.

وازداد الشعراء إيغالاً في الصنعة مع مضى الزمن، وغدا الشعر لديهم معرضاً للتزيين والتلوين كقول الوأواء الدمشقي (385هـ/ 994م).

فامطرت لؤلؤاً من نرجس وسقيت ورداً، وعضت على العناب بالبرد.

كذلك اكتسب الخيال غني ومضاء، فغدت الصود الشعرية متسمة بالتلوين والتعقيد، وخرج التشبيه عن بساطته المعهودة وأطوافه الواضحة المحددة.

فحين يسود أبو تمام وصف الطبيعة يستخدم نوافر الأضداد، وعندما يتعاودها الصحو والمطر يكون لذلك في مرأى الشاعر منظر معجب:

مطر يذوب الصحو منه وبعده صحو يكاد من النضارة يمطر

وبالإجمال اكتب الشعر العباسي تبعاً لمواكبته هنا العصر الحضاري كثيراً من ملامح الجدة والتزامه. حتى يمكن القول إنه بفضل من طوى عليه من جمال التعبير، وترافة التصوير، وسمو الخيال، وجدة المعنى، وسعة الثقافة وغني الفكر.. غيراً فناً مزدهراً وعاش عصره الذهبي.

ملامح البيئة وأثرها في تكوين شخصية الشاعر:

من الطبيعي أن تكون شخصية الشاعر جماع عوامل ومؤثرات تسهم في تكوينه وتتجلى في نتاجه، في طليعتها جملة معارفة وموروثه الأدبي ومعطيات بيئته وعصره. إن انتشار العرب في الأمصار من بلاد نحواسان والسند إلى أقصى المغرب والأندلس، نتيجة للفتوح الإسلامية، أدى إلى ظهور بعض الملامح القطرية في الشعر العربي، كما أن اختلاف البيئات المحلية أدى إلى خلق بعض

الألوان والطعوم المتمايزة لدى بعض الشعراء. غير أن هذه الملامح لم تبلغ المدى الذي يفضى إلى إبداع أدب إقليمي. فقد ظلت عناصر التوحيد أقوى من عناصر التباين، وذلك لأسباب كثيرة، لعل أهمها طبيعة العرب المحافظة التي تتجلى في نزعتها السلفية وحرصها على سماتها القبلية وموروثها الشعري، ومنها سلطان اللغة العربية الذي ينطوي على معطيات ركينة من التفكير وأنماط خاصة من مناي التصوير وأساليب التعبير، فضلاً عن الافتتان بالقرآن الكريم وهالته المقدسة في نفوس العرب على اختلاف جموعهم وتباعد بلدانهم، ثم ما يتصل بذلك من تعلق روحي بالحجاز، معقل الفصحى ومهبط الوحي وموئل الرسول.

وهذا ما يفسر تحدث الشاعر العربي وهو في أقصى الأندلس عن الجمل والسراب وذكره البان والعلم... وكثير من شعراء العصر العباسي كانت حياتهم قسمة بين دمشق وبعداد وحلب، أو بين الشام والعراق ومصر، أو بين أقطار المشرق وبلاد المغرب. وإن من أرخوا للأدب العربي على أساس من التقسيم الإقليمي، وأسبقهم أبو منصور الثعالبي في كتابه المشهور "يتيمة الدهر"، ثم العماد الأصفهاني الذي مضى على غرارة في كتابه "خريدة القصر" لم يلزموا أنفسهم بهذا الفصل الجغرافي في هذه البلدان والأقاليم، فبدت لدى شعراءهم ملامح التشابه أوضح من ملامح التباين، وأكثر ما وصفت به أقاليم العرب لا يتعدى الافتتان بمواطن الحسن والجمال في كل منها ونحو ذلك مما يكاد يكون قاسماً مشتركاً بين كثير من البلدان.

كما أثر الأندلسيون بلادهم الجميلة بحبهم ومحضوها إعجابهم، بل إن بعضهم كابن خفاجة وجد في رعوبها جنة أخرى:

يا أهل أندلس لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم ولم تخيرت هذه كنت أختار

ومن هذا القبيل شعر يبرز جمال ضفاف بردي ودجلة والنيل، ومفاتن غوطة دمشق وشعب بوان، ومحاسن قرطبة والزهراء.. إذ قلما يتعدى الأمر هذه الرؤى الجمالية لتلك الأقاليم وذلك يفضى إلى القول إنه قلما يلمس لدى شعراء العصر العباسي- على اختلاف أقاليمهم وتباعدها- سمات فنية تلفهم وتميزهم عن صعيد الصنعة والمعاني والصود وسائر العناصر الأسلوبية، إلا ما كان لديهم من مقومات شخصية ومعطيات ذاتية، أو من ملامح حضرية أو بدوية.

وهكذا كان أبو تمام، الشامي المنبت، هو رائد الصنعة البديعية في الشعر العربي، ويشاركه ي هذه الريادة أيضاً ابن المعتز العراقي أحد رؤس مذهب البدع، كما أن البحتري صور الطبيعة في المشرق أو صنوة الصنوبر يقابله ابن خفاجة في الأندلس، ومثل هذا التشارك تجده أيضاً على صعيد سائر أغراض الشعر من مديح وغزل ورثاء، وعلى صعيد الأساليب وسائر الظواهر الفنية لدى شعراء كل إقليم من الأقاليم العربية.

أعلام الشعر:

حفل العصر العباسي بعدد وافر من الشعراء الأعلام لم يحظ بمثلهم أي عصر آخر ومنهم:

بشار بن برد، وأبو نواس، وأبو العتاهية، ومسلم بن الوليد، وأبو تمام، ودعبل الخزاعي، والبحتري، وابن الرومي، وابن المعتز، وأبو فراس الحمداني، والمتنبي، والشريف الرضي، وأبو العلاء المعري، وابن الفارض.

الباب الثاني

خصائص الشعر في العصر العباسي

حينما نتذكر الشعر العباسي نتذكر البيان وبراعة التصوير ودقة المعني وسمو الخيال واتساعه وكانت للشعر قيمته الكبرى في الجاهلية، وعظمت هذه المكانة في عصر بني أمية، ولكن الاختلاط في العصر العباسي، وامْزاج العرب بغيرهم كان له أثره الكبير على هذا النتائج الجديد في الأدب والفكر.

وقد جمع الشعر العباسي بين فصاحة البداوة ورقة الحضارة وإبداعها، ونشأ عن ذلك شعراء تعلموا العربية، وسُمُّوا بالمولدين، وكان منهم العظماء كأبي نواس، وبشار بن برد.

وقد شجع خلفاء بني العباس العلم والأدب والفن، وكان للشعر نصيب الأسد من هذا التشجيع، فعقدوا له المواسم، واستمعوا للقصائد، ومنحوا الجوائز والهبات، وبذلك توفرت الأسباب لتطور الشعر من اختلاط ثقافي وتشجيع مادي ومعنوي، فبلغ الشعر في هذا العصر غاية لم يبلغها قبله ولا بعده.

فقد رقت الألفاظ والأساليب واستحدثت المعاني البارعة ونظم الشعراء في أغراض جديدة لم يسبق أي نظم الشعراء فيها.

كما جددوا الأغراض القديمة واطفوا عليها من براعتهم حللاً جديدة بعد الصقل والتهذيب.

وسوف نتناول خصائص الشعر من ناحية اللفظ والمعني.

ألفاظ الشعر وأساليبه:

أما ألفاظ الشعر وأساليبه فقد نهل شعراء هذا العصر من العربية حتى ارتووا، وحفظوا من عيون الشعر العربي القديم والجديد، وعاشوا في وقت ازدهار

اللغة وعنفوان مجدها، لذلك كله فقد هجروا الشعراء الألفاظ الغربية والوحشية، وابتعدوا عن التراكيب الغامضة والعبارات الملتوية وقل أن يحتاج المرء إلى معجم حين يقرأ لشاعر من الشعراء ليكشف عن معني اللفظ أو الهدف من التركيب يحسنون الفارسية كأبي نواس، فقد كانت العربية تتعمق جوهر نفسه، وذلك بفضل اللغويين الذين زودوه بها، وبفضل إقامته بالبادية، وحفظه لكثير من دواوين الشعر القديم، حتى قالوا[1] إنه يحفظ دواوين ستين امرأة فضلاً عن الرجال، ويشبهه في هذا بشار الفارسي الأصيل وزعيم الشعراء المحدثين.

فالشاعر العباسي بقي محافظاً على عربيته حتى في أسلوبه المولد الذي يميل إلى الرقة والسهولة والوضوح، مع جودة السبك وإبداع المعني، وقد نشأ هذا الأسلوب بدافع التحضير في العصر العباسي، وهو أسلوب يقوم على أساس من القديم وعدة من الذوق الحضري الجديد، أسلوب يحافظ على مادة اللغة ومقوماتها ويلائم بينها وبين حياة العباسيين المتحضرة، فتنفي الألفاظ العامية المبتذلة، كما تنفي الألفاظ الغريبة والوحشية، فكان بذلك أسلوباً من الغرابة والابتذال، بين لغة البدو والزاخرة بالكلمات الوحشية ولغة العامة الحافلة بالكلمات المبتذلة.

وكان بشار أول زعماء هذا الأسلوب، وفيه يقول بن المعتز[2]: "كان شعره أنقي من الراحة، وأصفي منا لزجاجة، وأسلس على اللسان من الماء العذب".

وتميز هذا الأسلوب المولد أيضاً بمحاولة استبعاد المقدمة للقصيدة والتي ظلت ورثة منذ الجاهلية حتى العصر العباسي، وفيها يصف الشاعر الأطلال والد من ويستطرد إلى وصف الصحراء والراحلة التي يركبها والحيوان الذي شاهده في الطريق، إلى أن يصل إلى غرضه المقصود، وقد تكون هذه المقدمة نسيباً يجعله الشاعر كتشويق لموضوعه.

وكان ماجَدّ في العصر العباسي من مظاهر الحضارة سبباً في محاولة استبعاد هذه المقدمة؟ فقد بنيت القصور، وانتشرت الحدائق وشاع شرب الخمر، وصارت الحياة ناعمة مترفة، فكان لزاماً على الشاعر أن يعبر عن واقعة الذي يعيش فيه، وقد سخر أبو نواس من الشعراء الذين يبكون الأطلال والديار، ونصحهم بوصف الخمر ولذتها يقول:

عاج الشقي على رسم ببسائله وعجت أسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضيين من أسد لا در درك قل لي من بنو أسد

ويقول:

دع الأطلال تسفيها الجنوب وتبلي عهد جدتها الخطوب

على أنه كان ينسى ثورته على المقدمة المذكورة إذا مدح أو هجا، ولعلة كان يحسب لقوة القديم حسابها، ويراعي أذواق الخلفاء[1].

وبعض الشعراء انصرف إلى وصف القصور والبساتين وجمال الطبيعة ومع هذا كله بقي الشاعر العباسي محافظاً على التقليد الموروث في الجملة، على الرغم من أنه كان لا يشاهد تلك المناظر التي يصفها، وربما كان هذا حنينا وتذكاراً للوطن القديم، زيادة على أن نسخ القديم بالمرة شيء صعب.

وكانت أهم العوامل التي أثرت في ألفاظ الشعر وأساليبه ثلاثة:

الحضارة، واختلاط العرب بغيرهم، والغناء.

أما تأثير الحضارة: فقد أدي إلى رقة ألفاظ الشعر وأساليبه حتى صارت تسيل رقة وجمالاً، واستبعاد الألفاظ الغربية والوحشية والأساليب الركيكة، كما حاول بعض الشعراء استبعاد المقدمة الموروثة، وزخرف الشعراء لذلك امتلأت

إشعارهم بالمحسنات البديعية من جناس وطباق وتورية واستعارة، وإن كان البديع لم يظهر بشكل واضح إلا في العصر العباسي الأول.

عند أبي تمام، ولننظر إليه وهو يصف بعيره بالسقم:

رعته الفيافي بعد ما كان حقبة رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

فقد جمع بين الطباق والاستعارة وروعة التصوير.

أما تأثير الغناء: فقد ظهر في انتقاء ألفاظ الشعر وجودة اختيارها وكانت المجالس الأدب تمتزج بمجالس الغناء فنظم الشعراء المقطوعات للمغنين، واختاروا الألفاظ الرشيقة والأوزان المستحدثة القصيرة وابتعدوا من الأوزان الطويلة التي لا تناسب الغناء.

أما تأثير الثقافات المختلفة على ألفاظ الشعر وأساليبه فبدا واضحاً في دخول بعض الألفاظ الأجنبية، وفي شيوع الاصطلاحات العلمية على ألسنة الشعراء بعد أن كانت تجرى على ألسنة الفلاسفة وعلماء الكلام.

المعاني: أما عن المعاني:

فكان للحياة في العصر العباسي أثر كبير على معاني الشعر وأخيلته، وقد فرضت الحياة العباسية نفسها على العباسيين فرضا، ولم يقف الشعراء مكتوفي الأيدي حيال ما يجري حولهم من تطور وقد تطورت الحياة الاجتماعية والفعلية في هذا العصر يطوراً كبيراً وكان للحضارة المادية والعقلية أثرها الكبير على معاني الشعراء وأخيلتهم، فقد أصبحت الحضارة المادية معيناً لا ينضب استمد منها الشعراء أخيلتهم الفسيحة ومعانيهم المبتكرة فهم يعيشون في مدن تحفل بمظاهر الأبهة والترف، وتمتلئ بالغناء والغزل والمجون، ذلك إلى طبيعة جميلة ورياض غناء وحدائق مزهرة، ففجرت هذه المشاهد قرائح الشعراء وسمت بخيالهم،

وارتفعت بمعانيهم، فأحسنوا التشبيه والمجاز والكناية، وأبدعوا في الاستعارة والمبالغة المقبولة، وإنما يحلق الخيار بعيداً حينما يتهيأ له الأفق الرحب فبعد أ، كان الشاعر يبتدئ قصيدته بالوقوف على الأطلال، بدل ذلك بوصف الطبيعة من أزهار وقصور وبساتين بل إن بعض الشعراء خص وصف جمال الطبيعة بمقطوعات كاملة.

وكان أثر الحياة الفعلية في هذا العصر كبيراً على المعاني والأخيلة، ونستطيع تلخيص تطور المعاني والأخيلة في النقاط التالية:

1- جدّد الشعراء في هذا العصر بعض المعاني القديمة بما تمليه عليهم حضارتهم فزادوا ونقصوا، وأوجزوا وأطنبوا، وصبغوا المعاني بصيغة جديدة حتى كأنها من صنعهم، فهذا النابغة يصف قدرة النعمان بقوله:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ويأتي سلم الخاسر ليبدع في المعني نفسه فيقول:

فأنت كالدهر مثبوتاً حبائله والدهر لا ملجأ منه ولا مهرب
ولو ملكت عنان الريح أصرفها في كل ناحية ما فاتك الطلب

2- ابتكار المعاني ودقتها واستقصائها، وهذا الابتكار للمعاني لا يعد ولا يحصى، فقد ابتكر الشعراء العباسون من المعاني الجديدة ما لا يحصر وذلك بسبب كثرة مشاهدتهم وتنوع ثقافتهم، واتصفت مع جدتها بالجمال والإبداع، يقول بشار بن برد يتحدث عن عشق الأذن:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحياناً
قالوا بمن لا ترى تهذي؟ فقلت لهم الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

وهذا أبو تمام يستقصي المعنى في تكذيب المنجمين:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب

ويحيط بالمعين من كل جانب في ثمانية أبيات.

3- قوة التصوير وبراعة الخيال: نتيجة للحياة العقلية التي أثرت في خيال الشاعر العباسي، وأملت عليه الدقة والبراعة، وهذا بشار يصف الجيش والقتال ويبدع أكثر من إبداع المبصرين فيقول:

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى وبالشوك والخطي حمر ثعالبه
غدونا له والشمس في خدر أمها تطالعنا والطل لم يجر ذائبة
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه وتدرك من نجي الفرار مثالبه
كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه[1]

4- ظهور أثر الفلسفة والثقافات على الشعر، لأن الشاعر العباسي قد قرأ تلك الكتب المترجمة من هندية وفارسية ويونانية، وحضر مجالس أهل الملل والنحل وما يدور فيها من الفلسفة والمنطق، وعلم الكلام الذي يعتمد على الفلسفة لم ينشأ إلا في هذا العصر، فطبعت معاني الشعراء بطوابع عقلية دقيقة، وأوردا في هذه المعاني البراهين العقلية، واعتمدوا على التعليل، يقول أبو نواس في وصف الخمر:

وقد خفيت من لطفها فكأنها بقايا يقين كاد يذهبه الشك

ويقسم بشار العّي إلى أقسام:

وعّي الفعال كعي المقال وفي الصمت عي كعي الكلم

ويظهر أثر المذاهب الكلامية على ألسنة الشعراء كقول أبي تمام يمدح أبا سعيد التغري:

عمري عظم الدين جهمي الندى ينفي القوى ويثبت التكليفا[1]

ويبدو التعليل وإدلاء البراهين واضحاً عند الشعراء، وهذا بشار يقول:

ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معايبه[2]

ويقول أبو تمام معللاً لضيق ذات يده:

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي[3]

5- كثرة الحكم والأمثال، وشيوع المبالغة والتهويل، وقد يكون سبب ذلك الاقتباس من الثقافات المترجمة، ويقال أنه كان في ديوان صالح بن عبد القدوس ألف مَثَل للعجم وكان لأبي العتاهية أرجوزة تسمي (ذات الأمثال) تضم أربعة آلاف، مثل وحكمة.

أما المبالغة فقد ظهرت لأسباب عدة منها: التأثير بالفرس لغرامهم بالمبالغة والتفتح أمام آفاق الحضارة الجديدة، وتشجيع الخلفاء لهذه المبالغات يقول أبو تمام في مدح المعتصم عندما فتح عمورية:

لو لم يقد جحفلاً يوم الوغى لغدا من نفسه وحدها في جحفل لجب

وكانت المبالغة قد وصلت إلى غايتها في العصر العباسي الثاني عند المتنبي ومعاصريه.

وبراعة الاستهلال وحُسن الانتقال ظاهرتان اتصف بهما الشعر العباسي إلى جانب تلك الظواهر العديدة التي تحدثنا عنها.

الأغراض:

أما عن الأغراض فقد استمد الشاعر العباسي أغراض شعره من المجتمع الذي يعيش فيه، ولبّى في أغراضه حاجات عصره ومتطلبات حياته، وقد تنوعت مشاهد الحضارة، وتعددت ألوان الثقافة، وجدّت في المجتمع عادات وتقاليد، وجارى الشاعر الحياة في ذلك كله فتنوعت أغراض شعره، وتناول بالتهذيب والصقل أغراض الشعر القديمة بما يناسب عصره، ونظم في أغراض جديدة فرضتها عليه طبيعة الحياة.

أما الأغراض التي جددها الشاعر العباسي فهي تلك الأغراض القديمة التي تناولها الشعراء الأقدمون من مدح وهجاء ورثاء ونسيب وفخر، واستطاع الشاعر العباسي إن يصبغها بصبغة عصره، ويضيف عليها حُلَلا من آثار حضارته، وأبعد عنها ما لا يلائم ذوقه وعصره، ولبى في أغراضه التي جددها مطالب الخلفاء والوزراء، أو تعصب لمذهب ديني أو سياسي.

وأول الأغراض المجددة المديح، ذلك الغرض القديم الذي تغني فيه الشعراء بفضائل ممدوحيهم، ووصفوهم بأكرم الخلال وأنبل الصفات، وبالغوا في الثناء عليهم إن صدقا وإن كذبا.

وكان الشاعر الجاهلي والإسلامي يصور المثالية الخلفية في ممدوحة، ويمدحه بعدله وسياسته الحكيمة إن كان خليفة، وبشجاعته وبطولته إن كان قائداً، وترددت هذه النغمات عند شعراء هذا العصر، واستنبطوا معاني جديدة تفوق الحصر، وأبدعوا في وصف السماحة والحلم والمروءة والعفة وعلو الهمة

والشجاعة، وأصبح الشعراء يرسمون صورة مثالية للحاكم وما ينبغي أن يكون عليه من الأخذ بدستور الشريعة الإسلامية، والاتصاف بصفات رجالها المخلصين.

وتقصَّى الشعراء في مدائحهم جميع الأحداث التي حدثت في عصورهم، ووصفوها وخاصة ما حدث من الثورات والفتن الداخلية، وأبدعوا في وصف حروب الدولة مع أعدائها من الترك والبيزنطيين، وأصبحت قصائد المديح في هذا العصر تشبه وثائق تاريخية، وتتحول المديح في بعض الأحيان إلى تاريخ.

وكان أهم ما سجلته قصائد المديح تلك الأحداث التي وقعت بين الدولة الإسلامية وبين أعدائها من الترك والبيزنطيين، فهناك روائع لأشجع السلمي حين تغني بفتح الرشيد لهرقلة، وروائع أبي تمام في إشادته بفتح المعتصم لعمورية وأنقرة.

وتجلت في كثير من قصائد المديح أروع المعاني الإسلامية، وخاصة ما قاله الشعراء في الحماسة ووصف الحروب بين الدولة وأعدائها، وعبروا بذلك عن مشاعر المسلمين المفعمة بالفرح والمزهوة بالنصر.

وقد اهتم الشاعر العباسي في قصائد مديحه بالفضائل المعنوية من رزانة العقل والحلم وسداد الرأي، وانصرف بذلك عن الفضائل الحسية في أكثر قصائده...

وظاهرة مدح المدن والتعصب لها جديدة في قصيدة المدح، ونلحظ أبيات الحكمة المبثوثة في ثنايا المدائح نتيجة للتجارب الخاصة لدى الشعراء وما اقتبسوه من حكم الفرس والهنود.

ووجود الأحزاب السياسية دفع إلى المديح السياسي والدفاع عن حزب سياسي معين وكان الحزب العباسي والحزب العلوي من أهم الأحزاب السياسية التي نالت كثيراً من مناصرة الشعراء.

والمبالغات الشديدة كثيرة في مدائح العباسيين لاسيما عند المتنبي ومن عاصره في العصر العباسي الثاني، وتصل المبالغة إلى حد يفسد معه المعنى، ويخرج به الممدوح عن صفات البشر، يقول أبو نواس في مدح الرشيد:

وأخفت أهل الشرك حتى أنه لتخافك النطف التي لم تخلق

والهجاء غرض قديم من أغراض الشعر العربي، فمن يناقض المديح، ويسلب المهجو صفات الرجولة من شجاعة وكرم وحلم ومروءة وغيرها.

ويتصل الهجاء بحياة الشعب اتصالاً أقوى من اتصال المديح، وقد تطور الهجاء في العصر العباسي، وأصبحنا لا نرى نظائر لنقائض جرير والفرزد و الأخطل في العصر الأموي، بل اتجه الهجاء اتجاهاً جديداً يحمل في طياته الفجور والفساد، وأصبح الشعراء العباسيون لا يتورعون عن تتبع العورات، ووصم المهجو باللواط والزنا وما إلى ذلك من فحش ودعارة.

وكانت الحياة اللينة الرغيدة وتوفر أسباب الراحة وضعف الوازع الديني، وانتشار اللهو والمجون أسباباً دفعت هذا النوع من الهجاء المقذع الذي يترفع الإنسان النزيه عن ذكره على لسانه، ولم يكتف الشعراء بسلب المهجو صفات الرجولة، وإلا فحاش في السَّب، بل اتجهوا في الهجاء اتجاهاً آخر هو إضحاك الناس والسخرية من المهجو، ودعا إلى ذلك الفراغ وحاجة الناس إلى المسامرة والإضحاك يقول جماد عجرد في هجاء بشار:

ما خلق الله شبيها له من جنة طراً ومن إنسه
والله ما الخنزير في نتنه بربعه في النتن أو خمسه

وبذلك أصبح الشاعر العباسي يصور المهجو صورة تستدعي الضحك وتجلب على السخرية وتشبه هذه الصورة الصورة "الكاريكاتورية" في عصرنا الحاضر.

وشاع في العصر العباسي الهجاء بالزندقة والمجون وإتباع المذاهب الوثنية المنحرفة، وكان سبب ذلك انتشار الزندقة والملل المختلفة وتأثر الهجاء في العصر العباسي بالحياة الجديدة، واتجه إلى الفحش والاقذاع إلى جانب إثارة الضحك والسخرية.

أما الرثاء فهو من الحزن والأسى، عرفه الشعر العربي في عصوره القديمة، ويتميز غالباً بصدق العاطفة وحرارة اللوعة، ويصب فيه الشاعر أروع مشاعر الحزن وأصدق الأحاسيس ويكون ذلك عندما يرثى قريباً أو صديقاً أو ابناً.

والمراثي صورة لفجيعة كبرى وخطب فادح وخسارة عظمى، وضاعت بسببها الآمال، ومات الوفاء والكرم، وانتهت الشجاعة بعد وفاة هذا الرجل العظيم، وكلما كان الشاعر مثيراً للأشجان موقظاً للأسى في النفوس كلما كان ناجحاً في الوصول إلى غرضه.

والحضارة العباسية وما فيها من مظاهر الترف والرقة كانت سبباً في رقة المشاعر وتدفق العواطف وإرهاف الأحاسيس، وكانت المراثي في العصر العباسي صورة تفيض بالحزن، وتمتلئ بالأسى، وتعبر عن العواطف الصادقة وتثير في النفس لواعج الهم والحزن. واندفع شعراء العصر العباسي يبكون خلفائهم وقوادهم بكاء حاراً، يصور الخلفاء في عدلهم وشجاعتهم وكرمهم، ويصوروا القواد في بطولتهم وإقدامهم، وكيف ملأ موتهم القلوب حسرة وفزعاً وامتزج الرثاء بالحماسة، ومضى الشاعر يمجد البطولة في المفقود تمجيداً يثير الحمية في النفوس، ويدعوا الشباب إلى الدفاع عن عربية الإسلام، ومن أصدق الأمثلة على هذا ما قاله أبو

تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي قائد المأمون، والذي خرّ صريعاً في ساحة الشرف، وفيه يقول:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذرُ
توفيت الآمال بعد محمد وأصبح في شغل عن السَّفَر السَّفْرُ

وكل الشعراء صفحات مشرقة لأعمال الخلفاء، وبطولة القواد، صفحات أمتن فيها الحماس بالحزن والأسى.

وتنافس الشعراء العباسيون في استنباط المعاني النادرة في مراثيهم ومن طريف هذه المعاني قول مسلم بن الوليد في رثاء شخص:

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دل على القبر

و عَبّر كثير من شعراء العصر العباسي عن حزنهم على قتلى الشيعة، وسجلوا قصائد تفيض باللوعة، وتستدر الدموع، وتصور ما حلَّ بهؤلاء من إهانة وقتل، وما نزل بهم من كوارث، وكان السيد الحميري ودعبل الخزاعي وديك الجن من أبرز الشعراء الذين بكوا قتلى الشيعة وكانت سمة الوضوح ظاهرة على كثير من الشعراء كأبي العتاهية وأبي نواس وابن المعتز والبحتري، وكانت الألفاظ مع وضوحها محافظة على فصاحتها، لأن الشعراء ألموا بمفردات اللغة، وحفظوا القديم والجديد من الشعر، وعاشوا في أَوَجّ قوة اللغة، وكان للغويين دور كبير في المحافظة على فصاحة اللغة، فقد سجلوا أشعار الجاهليين والإسلاميين، وكان حراس الشعر[1] وسذيته، فقد عرضوا نماذج الشعر القديم على الشعراء وتمسكوا به تمسكاً شديداً، وكان الشعراء يعرضون عليهم قصائدهم قبل نشرها في كثير من الأحْيان.

وكان تعصب اللغويين للقديم شديداً، يقول أبو عمرو[2] بن العلاء: إن المحدثين كل على غيرهم، وإن قالوا حسناً فقد سبقوا إليه، وإن قالوا قبيحاً فمن عندهم. ولعل هذا خطأ في تقويم الشعر، فالجيد جيد في كل زمان ومكان، وعلى كل حال فقد كانت لجهودهم آثارٌ طيبة في احتذاء القديم في فصاحته وسلامته من العيوب اللغوية.

ونتيجة للامتزاج الثقافي فقد دخلت لغة الشعراء بعض الألفاظ الأجنبية. لاسيما الفارسية – ولكنها كانت قليلة، وقَعَ قلتها فقد كان الشعراء يوردون الألفاظ الأجنبية في شعرهم تطرفاً وتملجاً، وظهرت هذه الألفاظ بوجه خاص عند أبي نواس، وهذا لا يعني ضعف العربية أو عدم قدرتها على التعبير، يقول محمد خفاجي[3]: "فإن العربية كانت أعز من أن تحني رأسها للعواصف، وظلت كما هي لغة التفكير والأدب، وإنْ سايرت حركة الرقي، ولم تقف جامدة ضعيفة الإحساس بالحياة"[4].

ويرى شوقي ضيف أن القول بضم الفارسية للعربية إدعاء فيه كثير من المبالغة، فقد كانت الفصحى أقوى من أن تنتقص حتى لدى من كانوا وأطالوا هذا البكاء.

وظهرت في الرثاء العباسي ضروب جديدة لم تكن معروفة من قبل، ومنها رثاء المدن الزائلة التي تعرضت للخراب ونزلت بها الكوارث، كما رثي بعض الشعراء الحيوانات بعد موتها، وعبروا عن حزنهم لفقدها.

والغزل فن أجاد فيه الشاعر العباسي وأبدع ملبياً بذلك شهوات نفسه ومعبراً عن واقعة الذي يعيش فيه، وقد سبق التفضيل عن الحياة الاجتماعية في هذا العصر وما انتشر في المجتمع من مجون، فقد كثرت القيان والجواري وشاع الغناء وكثرت مجالس الطرب التي تتعانق فيها الكؤوس، ويتبادل الجالسون فيها

الصبابة والهوى فليس غريباً أن يشيع الغزل الماجن في مجتمع هذه عاداته وصفاته وليس غريباً أن يطالب الشعراء اللذة الجسدية وأن يثير الغرائز، فانصرفوا يتحدثون بكل جرأة لا يردعهم حياء أو ضمير، فثارت الغرائز، وتفتحت مغالق الميول والنزوات(1).

واختفي الغزل العذري العفيف أو كاد، إذا استثنينا العباس بن الأحنف من شعراء الغزل في هذا العصر، أما بقية شعراء الغزل فقد تبذلوا في وصف المرأة، وأمعنوا في هتك حجاب العفة، لا يردعهم ضمير، ولا ينهاهم خلق أو دين، ونجد أمثلة صادقة لذلك عند بشار وأبي نواس وغيرهما.

وشاع في هذا العصر نوع من الغزل لم يكن معروفاً، وهو الغزل الشاذ بالمذكر والذي يعطي صورة واضحة للسقوط والانحراف الذي وصلت إليه الحياة الاجتماعية في هذا العصر.

وكان حماد عجرد ووالبه بن الحباب أول من نظم في الغزل بالمذكر، وتلاهما أبو نواس والحسين بن الضحاك وإياس، وغيرهم من الشعراء الإباحيين فمن كانوا يجتمعون على موائد الشرب وبين أيديهم القيان والغلمان، وهذه الظواهر الشاذة في الغزل كانت على نطاق ضيق.

ونجد عند شعراء الغزل المكشوف كثيراً من قصائد الغزل العفيف، الذي تبدو عليه سمات الوقار والطهارة، يقول بشار:

أبيت أرمد ما لم اكتحل بكم وفي اكتحالي بكم شاف من الرمل
رقت لكم كبدي حتى لو أنكم تهوون ألا أريد العبس لم أرد
كأن قلبي إذا ذكراكم عرضت من سحرها روت أو ما روت في عقد

والوصف غرض من أوسع أغراض الشعر يعير فيه الشاعر عن مشاهداته ويصور فيه ما حوله من مظاهر، وتبدوا براعة الشاعر في دقة الوصف وإحكامه.

وفي الوصف يتحدث الشاعر عن بيئته ومجتمعه ويصف المناظر التي يراها في حياته اليومية، ولذلك نجد الشاعر الجاهلي والإسلامي يصفان الهاجرة والفلاة والمطر والقوس، ويطيلان وصف في الخيل الناقة والحية وغير ذلك من المناظر التي ألفا مشاهدتها. وإذا كان الشاعر الجاهلي والأموي قد وصف مشاهد الصحراء فإن الشاعر العباسي منحصر قرف، يصف القصور و؟؟؟؟ ويفاضل بين الورود والأزهار، ويعبر عن الحضارة التي عاشها.

ومظاهر الحياة على اختلافها هي التي تلمس الإحساس بالجمال، وتقوي ملكة التصوير لدي الشاعر، وقد صوروا الشعراء ما وقعت عليه أعينهم من مظاهر الحضارة في رقة وسلامة، وتميز الوصف في العصر العباسي بالدقة والتفصيل والتجديد في التشبيه والاستعارة والتطور الذي حدث في الوصف هو تحول الشعراء إلى وصف مظاهر الحضارة وهجرهم لوصف المشاهد التي وصفها القدماء، فنجدهم يصفون الرياض المزهرة والأمطار والسحب والحيوان والطير والقصور والبساتين وغير ذلك مما جاءت به الحضارة العباسية، وقد أجاد في الوصف كثير من شعراء العصر العباسي وفي طليعتهم البحتري وابن المعتز، وشعر الطرد والصيد باب من أبواب الوصف أجاد فيه الشعراء ونبغ فيه أبو نواس، فوصف كلاب الصيد وآلاته، ورحلاته التي كان يقوم بها وتحدث عن لذاته ولهوه في أيام صيده وقد تبعه ابن المعتز في شعر الطرد والصيد فيما بعد ولم يكتف الشاعر العباس بطرق الأغراض الشعرية القديمة وتجديدها، بل اخترع أغراضاً جديدة أملته عليها ظروف حياته ومظاهرها، فقد جدت في العصر العباس عادات وتقاليد، ودخلت ثقافات جديدة، وامتزجت عناصر مختلفة، وتحول العربي

من البداوة إلى الحضارة، ومن شظف العيش إلى النعيم والهدوء والراحة، وتلك أسباب كافية بأن تجعل الشاعر العباسي يجدد ويبدع.

فما هي الأغراض الجديدة في شعر العباسيين؟

كان الغزل بالمذكر والهجاء بالزندقة تطوراً حدث في الغزل والهجاء عند العباسيين، ويحق لنا هنا أن نضيفها إلى الأغراض الجديدة التي لم تكن معروفة عند الشعراء قبل العصر العباسي.

وكان رقي الحياة العقلية في العصر العباسي سبباً في ظهور غرض جديد هو الشعر التعليمي، وأصبح الشعراء ينظمون القصص والمعارف والعلوم والسير والأخبار، وكان أبان بن عبد الحميد أول من عمل على إشاعة هذا الفن الشعري الجديد، فقد نظم في هذا الموضوع تاريخاً وفقهاً وقصصاً كثيرة.

ومنها نظمه لقصص كتاب "كليلة ودمنة".

كما نظم أبو العتاهية أرجوزة تسمي "الأمثال" وتبلغ أربعة آلاف بيت.

وسار كثير من الشعراء في هذه الطرق.

ونظمت أشعار في الفقه والمصطلح والتاريخ وغيرها.

ومع أن النظم في الشعر التعليمي لا يعتبر شعراً في الحقيقة إلا أنه فن جديد اهتدى إليه الشاعر في عنصر الحضارة والتقدم. ونظمت في العصر العباسي أشعار في النوادر والفكاهات، وكانت تعج بها مجالس اللهو والسمر، يقول مروان بن أبي حفصة في لحية شيخ يقال له رباح:

لقد كانت مجالسنا فساحاً فضيقها بلحيته رباح
مبعثرة الأسافل والأعالي لها في كل زاوية جناح

الزهد:

ومن أهم الأغراض الشعرية التي جدَّت في هذا العصر الزهد ذلك الفن الجديد الذي تردد على ألسنة الشعراء، وصورة الحياة الدنيا على أنها دار ممر، لا تستحق ما نقوم به من أجلها، فهي فانية، زائلة، وغداً إلى دار الخلود.

ولما كان الترف والثراء وضعف الوازع الديني واختلاط العرب بغيرهم دافعاً إلى شعر المجون والزندقة والغزل بالمذكر، فإنه قد يكون سبباً في نشأة الزهد والحياة العباسية كانت تتمتع بنصيب كبير من الجد والتدين والمحافظة، وإن كنا قد صورنا ألواناً من المجون والانحراف فإن هذا مقتصر على طبقة خاصة من الناس هي طبقة الحكام ومن حولهم أما بقية الأمة فهي محافظة متدينة في الغالب، وعندما انتشر الترف، والفساد، وكثر الانحراف تحركت عواطف وظهور تيار الزهد يعتبر بمثابة رد فعل لحياة الترف والمجون، يقول محمد خفاجي:

"الزهد فن جديد نشأ في الشعر العباسي يتأثر كثرة الترف".

ويقول محمد مصطفي هدارة:

"إن وجود تيار الزهد المضاد لتيار المجون منطق طبيعي لتطور الأشياء".

والحياة العباسية لم تكن لهواً كلها، ولم يكن الأدب العباسي منحصرا في المجون والزندقة والغزل الكشوف، بل كانت حياة جادة متمسكة بدينها، وكأن هناك أدب تغني بالفضيلة، وحث على الأخلاق، ونعي على المنحرفين ضلالهم، وعلى طلاب الدنيا خسرانهم، وتفصيل هذه المعاني، وغيرها يحتاج إلى أبحاث لذلك سوف نقتصر الحديث على الإشارة إليها.

وخلاصة القول إن الشاعر العباسي قد أبدع في الأغراض الشعرية القديمة، ونسج عليها حللا زاهية، كما تأثر بما في عصره من حضارة وعمران، وأنه اهتدى إلى أغراض جديدة لم تكن في العصور السابقة فرضتها عليه حياته وواقعه سواء أكانت شراً على المجتمع أم كانت دعوة إلى الصلاح والتقوى.

الأوزان والقوافي

تجدر الإشارة إلى أن التطور في الشعر شمل الأوزان والقوافي، ومال الشعراء إلى الأوزان الخفية والمجزوءة لتلائم الغناء الذي انتشر في هذا العصر، ولتوافق حياة النعومة والترف.

وكما خرج الشعراء العباسيون عن الأوزان المعروفة تحرروا من القافية وقيودها ومن هذا التحرر الشعر المسمط والمزدوج والمخمس.

والمزدوج يتكون من شطرين من قافية وآخرين من قافية أخرى وهكذا، وكثر هذا النوع من الشعر التعليمي عند إبان بن عبد الحميد وأبي العتاهية.

خاتمة البحث

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد: فهذه أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث:

(1) أن المجون الذي انتشر في العصر العباسي قد بالغ الأدباء في تصويره وأعطوه من الاهتمام أكثر مما يستحق في الواقع حتى إن الدكتور "طه حسين" وصم العصر العباسي كله بأنه عصر شك ونفاق ومجون، ثم جعل أبا نواس وأضرا به يمثلون العصر العباسي والحياة الشعرية الماجنة قاصراً الشعر على هذا الاتجاه الماجن، مع

أن هـؤلاء لا يمثلـون سـوى اتجـاه منحـرف نشـأ لظـروف مختلفـة فـي العصـر العباسـي، ومـن الخطـأ أن نجعـل شـاعرا يمثـل عصـراً بكاملـة كما فعل الدكتور طه حسين.

(2) أن الشعر سجل العرب وصفحات من تاريخهم يصور فيه ما كانوا عليه من صراع بين الحق والباطل، وصورة ناطقة لما كانوا عليه في حياتهم الاجتماعية والسياسية، والعلمية.

(3) أن العصر العباسي بحق هو أزهي عصور الأدب على الإطلاق؛ فقد بلغت الدولة فيه قمة المجد في مظاهرها وخلف لنا العباسيون ثروة فكرية هائلة.

هوامش الدراسة

---

(1) العصر العباسي الأول: 139

(2) الأغاني: 109/16

(3) الآداب العربية في العصر العباسي الأول، 76

(4) العصر العباسي الأول: 142.

المصادر والمراجع

(1) الآداب العربية في العصر العباسي الأول/ محمد عبد المنعم خفاجي دار الطباعة المحمدية القاهرة.

(2) اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري/ محمد مصطفي هداره دار المعارف القاهرة 1970م.

(3) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني دار الكتب المصرية.

(4) أمراء الشعر العربي في العصر العباسي/ أنيس المقدسي/ دار العلم للملايين / بيروت الطبعة التاسعة 1971م.
(5) الأوراق قسم (أخبار الشعراء) أبو بكر الصولي – مطبعة الصاوي – الطبعة الأولي.
(6) بشار بن برد/ طه الحاجري – دار المعارف بمصر 1954.
(7) تاريخ الأمم والملوك/ محمد بن جرير الطبري – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف بمصر.
(8) تاريخ بغداد – الخطيب البغدادي – مكتبة الخانجي 1931 القاهرة
(9) ديوان أبي العتاهية (إسماعيل بن القاسم) تحقيق شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق.
(10) ديوان بشار بن برد تحقيق محمد بن الطاهر عاشور. وقف على مطبعة محمد رفعت فتح، ومحمد شوقي. طبع لجنة التأليف والترجمة
(11) ديوان أبي تمام (حبيب بن أوس) تحقيق محمد عبده عزام وشرح الخطيب التبريزي. طبع دار المعارف 1965م.
(12) ديوان أبي نواس (الحسن بن هاني) تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي.
(13) ديوان مسلم بن الوليد (صريع الغواني) تحقيق وتعليق سامي الدهان. دار المعارف بمصر.
(14) الشعر والشعراء – محمد بن قتيبة – تحقيق أحمد محمد شاكر دار المعارف بمصر.
(15) شعراء عباسيون – تحقيق جروبنام جوستاق دار مكتبة الحياة بيروت 1959م.
(16) الشعراء في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري أحمد عبد الستار فراج. دار المعارف بمصر.

(17) العصر العباسي الأول – شوقي ضيف دار المعارف بمصر.

(18) العصر العباسي الثاني – شوقي ضيف – دار المعارف بمصر.

(19) العقد الفريد لابن عبد ربه – شرحه وضبطه أحمد أمين، أحمد الزين إبراهيم الإبياري. طبع لجنة التأليف والترجمة 1950 القاهرة.

(20) العمدة – الحسن بن رشيق القيرواني – مكتبة الخانجي القاهرة 1907.

(21) مروج الذهب / علي بن الحسين المسعودي – بولاق القاهرة 1283هـ.

(22) معجم الشعراء – محمد بن عمر المرزباني – تهذيب سالم الكر فكري مكتبة المقدسي 1354م القاهرة.

(23) من حديث الشعر والنثر – طه حسين – دار المعارف الطبعة التاسعة.

(24) النجوم الزاهرة – يوسف بن تغري بردي – طبع دار الكتب المصرية.

(25) وفيات الأعيان – أحمد بن حلكان – علق عليه محمد محي الدين عبد الحميد مكتبة النهضة المصرية.